المحاضرة الثالثة: الموضوعية والذاتية

يحتل العلم اليوم مكانة مرموقة في المجتمعات المعاصرة لأنه كان قادراً على توفير المعرفة الموضوعية، تمامًا مثل العلوم الإنسانية بشكل عام، وعلم التاريخ على وجه الخصوص، الذي أعاد بناء أحداث الماضي. ومن بين المسائل الأساسية التي ساهمت في تحقيق خطوات كبيرة لكتابة تاريخ البشرية هو الاهتمام بموضوعي الموضوعية والذاتية.

5-1- الموضوعية

يجد الباحث نفسه ملزما للتطرق إلى هذا الموضوع، ولكن برؤية علمية مجرّدة، ذات طابع تنظيري، ذلك أن التنظير هو أساس التطبيق، وبما أن الموضوعية تعدّ أحد أهم مرتكزات المناهج العلمية، فلقد كثر الحديث عنها.

"التعريفات الأساسية تخبرنا أن الموضوعية هي حالة ما هو موضوعي، أي حالة ما هو موجود في الموضوع. لدينا وصف فقط هنا، لكنه سيساعدنا على فهم كيف وإلى أي مدى يمكن أن تنطبق الموضوعية على التاريخ" .

تعني الموضوعية بالنسبة للبعض الابتعاد عن التزييف، والابتعاد عن المصالح الذاتية، والأهواء والنزعات الشخصية ، وتعني للبعض الآخر الوصول إلى قدر كبير من المصداقية .

ويصفها البعض الآخر بأنها "الحكم على الأشياء بمنطق وحياد بعيدا عن الهوى أو التفصيلات الشخصية أو التأثيرات العاطفية"، وهي أيضا عند البعض "مجموعة من الأساليب والخطوات والأدوات التي تمكننا من الوقوف على الحقيقة والتعامل معها على ما هي عليه بعيدا عن الذاتية والمؤثرات الخارجية" .

وأن تكون "شخصا موضوعيا يعني أن لا تتأثر بدوافعك وعرفك وقيمك وموقفك الاجتماعي" . ولكن على الرغم من استمرار هذا الجدال حول الموضوعية، إلا أنها تبقى تحتفظ بأهميتها، باعتبارها المرآة العاكسة للحياد العلمي والتّجرد من كافة الأهواء، وباعتبارها النموذج الوحيد الذي قد يسمح لنا بتمثيل مطابق للواقع .

ولكن وعلى الرغم من أننا نطمح إلى وصف صادق لما نشاهده أو نسمعه يتم وفق كياننا المتضمن للشعور والإحساس والأحكام المسبقة، والتجارب والعارف، وبما هو موجود في العقل، فالموضوعية إذن هي ميزة من يتطرق إلى الواقع بأكبر صدق ممكن ، ومن ثم الابتعاد كليا عن الذاتية.

5-2- الذاتـــــــــــية

تُعرّف الذاتية كمصطلح أنها المصلحة وهي كذلك البعد عن الحيطة والحذر والتحيّز في البحث وإتباع الباحث لميوله وأهوائه ومواقفه الشخصية ورغباته الفردية .

والحق أنه سواء أكانت الموضوعية أو الذاتية، فإنها صفات تتعلق بالباحث وعلاقته ببحثه، ذلك أن التاريخ هو تجربة المؤرخ لأنه ليس من صنع أحد باستثناء المؤرخ، وكتابة التاريخ هي الطريقة الوحيدة لصنعه .

5-3 - الباحث بين الموضوعية والذاتية:

يجب أن نعرف أن البحث العلمي يتطلب من الباحث استخدام كل طاقته، الشيء الذي يجعل من الصعب عليه أن لا يجد مصلحته من هذا البحث، فهل تمكنه في هذه الحالة أن يتخلى عن كامل ذاتيته وأن يتجاوز أبعد ما يمكن أفكاره المسبقة، وهل يمكنه أن يتجنب التلاعب والتحريف الذي يمكن أن يكوّن النتائج التي يطمح إلى بلوغها عرضة له؟! وهل إذا استطاع أن يحقق ذلك يكون عندها كائن متنكر لذاتيته، أو أنه فقط يكتمها، ذلك أن التنكر للذات هو نكران لكل ما يحمل ويدعو على حبّ القيام بالبحث وذلك هو التناقض؟!هنا تكمن المعضلة، إلي أي حدّ يمكن للمؤرخ أن يتخلص من ذاتيته في الكتابة التاريخية؟

ربّما يمكننا الإجابة عن هذا التساؤل إذا عرفنا بأن المؤرخ هو شخص متقصي عن الحقائق بواسطة الوثيقة التاريخية وهذا التقصي بالتأكيد يتطلب من المؤرخ الإلمام بالأسباب والعلل، فالكتابة التاريخية كلما كانت متسببة ومعلّلة فبالضرورة ستكون موضوعية كما يرى ذلك "ماكس فيبر".

كما يجيب مارسيل ترودال بمايلي:" أخيراً، إذا كانت الموضوعية على هذا النحو محدودة، فكيف سيبقى المؤرخ مخلصًا لموضوعه؟ سيبقى كذلك من خلال طريقته: أنا لا أفكر قبل كل شيء في طريقة البحث، وهي طريقة تقنية، لكنني أفكر في جزء أكثر حساسية من العمل: الفهم والتفسير والحكم؛ للبحث عن النور، يجب على المؤرخ، بأقصى قدر من الدقة، أن يستفيد من جميع القوى النفسية أو غيرها من القوى الموجودة فيه أو التي تؤثر عليه، مع الحرص على أن هذه القوى نفسها لا تمنعه من رؤية ما هو بديهي، لا تدفعه للخروج من الحياد ولا تمس حكمه، لأن كونك موضوعيًا في التاريخ يعني احترام سلامة موضوعه" .